المحاضرة الأولى: جغرافية العراق التاريخية.

The Historical Geography of Ancient Mesopotamia

أصل التسمية:

أختلف الباحثين في تحديد أصل كلمة(عراق) فهناك من يرى ان أصل الكلمة عربي بمعنى(الشاطئ) او(الجرف)، في حين يرى آخرون ان الكلمة من أصل فارسي من (آيراه) التي عربت الى ايراق ثم عراق، وان التسميتين (ايران وعراق) من الكلمة(آيراگ).

ورأى الاستاذ طه باقر انه من الممكن ان يكون أصل كلمة (عراق) من التراث اللغوي العراقي القديم، وانه ربما اشتق من كلمة(اوروك) التي تعني (المُستَوطَن) وهي نفس الكلمة المستخدمة في مدينة الوركاء والداخلة في تركيب اسماء جملة مدن قديمة مثل اور و لارسا، الا ان التسمية (اوروك) لم تستخدم لدى العراقيين القدماء للدلالة على القطر كله بل على مدينة واحدة.

كما رأى اولمستد Olmestead ان التسمية ربما كانت مشتقة من الاسم (اريقا) الذي ورد في احدى الوثائق التاريخية الراجعة للقرن الثاني عشر قبل الميلاد للدلالة على اقليم معين.

وأطلقت على بلاد وادي الرافدين تسميات (كي . اين . جي) والتي تعني بلاد سومر (حالياً محافظات القادسية وذي قار والمثنى والبصرة)، و(كي . اوري) لتعني بلاد أكد (حاليا يرجح أن تبدأ من حول تكريت إلى جنوب الحلة)، مع ضرورة الإشارة إلى عدم وجود حدود طبيعية تفصل بين سومر وأكد، وتمكن الملك السومري (اوتو حيكال) (سلالة أور الثالثة) من طرد (الكوتيين) وتحرير وتوحيد البلاد وليطلق على نفسه اسم (ملك سومر وأكد) وظل هذا الاسم شائعاً إلى آخر عهود العراق التاريخية تقريباً، أما القسم الشمالي من العراق فقد عرف باسم (سوبارو) أو (سوبارتو) المشتق من اسم (السوباريين) (الفراتيون الأوائل) الذين سبقوا السومريين في سكنى جنوب العراق، ثم أطلق البابليين اسم (سوبارو) لتعني الشمال، كما أطلق الكشيون لفظة (كار دويناش) على بلاد بابل، وهي تعني (بلاد الإله دويناش) الرب القومي لهم، واستمر الآشوريون يطلقون هذه التسمية على بلاد بابل حتى عصور متأخرة، أما تسمية (عبر النهر) فهي من (ايبر ناري) أطلقها الأخمينيون على العراق وقسم من سوريا حتى حدود فلسطين في أثناء احتلالهم للعراق.

وأطلق اليونان والرومان والمؤرخون الأوربيون من بعدهم اسم (بلاد آشور :آسريا)) على شمال غرب العراق، وأسم (بلاد بابل (بابلونيا)) على وسط وجنوب العراق، وأحيانا يستخدمون أحد المصطلحين ليعنوا به البلاد كلها، وهذا الخطأ وقع فيه أيضا المؤرخ (هيرودوت) عندما أطلق اسم (اسريا) أي بلاد آشور على جميع بلاد بابل، واستخدموا أيضاً مصطلح (كلديه) أي بلاد الكلدانيين (وهم الآراميون الذين ينتمي إليهم الملك نبوخذنصر الثاني باني الجنائن المعلقة.(وفضل الكتاب الكلاسيكيين تسمية (ميسو بوتاميا) (بلاد الرافدين) أو (بلاد ما بين النهرين)، المشتقة من كلمة (ميسو) تعني (وسط) و(بوتاميا) تعني (الأنهار)، ولا يعرف بالتحديد الفترة التي بدا فيها استخدام هذا المصطلح، وجاء في العهد القديم (التوراة) اسم (سهل شنعار) ليعني منطقة السهل الرسوبي الجنوبي، هو مشتق من الكلمتين الأكديتين (شينا) ومعناها (اثنان) وكلمة (نار) أي (نهر) ليكون معناها (ارض النهرين)، كم ورد في (سفر التكوين ١٠:٢٤) اسم (أرام نهرايم) وهي تعني أيضا بلاد ما بين النهرين، ولما ترجمت التوراة إلى اليونانية واللغات الأوربية فيما بعد شاع استخدام مصطلح (ميسو بوتاميا) ليعنى به العراق، وقد ورد بدأً عند المؤرخ اليوناني (بوليبيوس ١٢٠ق.م)، كما أكثر من ذكرها المؤرخ الروماني (أريانوس) (القرن ٢م) في فصوله عن حملة الإسكندر المقدوني في العراق، وتسمية (ميسو بوتاميا) توازي التسمية الأكدية (بيريت نريم) التي وردت في بعض النصوص البابلية تعني منطقة واقعة بين منعطفات معينة من نهر الفرات تصعب معرفتها بالضبط من بلاد بابل، وربما صارت منذ أوائل الاحتلال السلوقي تطلق على منطقة واسعة بين نهري دجلة والفرات وعلى شاطئيها، كما أن تسمية (ميسو بوتاميا) ترادف تقريبا مصطلح (الجزيرة الفراتية) التي أطلقها البلدانيون العرب على الأقسام الشمالية والوسطى من العراق.

الموقع:

يقع العراق في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا، وكانت لهذا الموقع أهمية إستراتيجية وتجارية كبيرة، لأنه يقع على الجسر الأرضي الذي تلتقي فيه القارات الثلاث أوربا وآسيا وأفريقيا، كما أنه يقع عند ملتقى طرق القوافل التجارية القادمة من المحيط الهندي والشرق الأقصى باتجاه البحر الأبيض المتوسط من خلال الخليج العربي، وكان لهذا الموقع أهميته في اتصال ابناء العراق القديم بغيرهم من الاقوام عن طريق التجارة، فكان ان انتقل العديد من العناصر الحضارية

من والى العراق، نتيجة احتكاك العراقيين القدماء واتصالهم بالاقوام الاخرى، كما ان وقوع العراق الغني بموارده الزراعية و المائية، ولاسيما سهله الرسوبي الممتد بين منطقتين تفتقران لهذه الموارد الطبيعية، هما المنطقة الجبلية في الشمال والشمال الشرقي، والمنطقة الصحراوية في الغرب و الشمال الغربي، قد أثر في تتابع الهجرات والغزوات عليه وكانت ردود فعل الملوك والحكام سريعة، فقد قاموا بحملاتهم العسكرية المستمرة لصد الغزو والحد من الهجرة ونجحوا أحيانا وفشلوا أحيانا أخرى.

أثر الجغرافية في نشوء و تطور الحضارة العراقية القديمة:

كان للعوامل الجغرافية و البيئة الطبيعية تأثير كبير في حضارة العراق القديمة في الجوانب الآتية:

١- التركيب السكاني:

يقع العراق بموارده الزراعية والمائية، ولاسيما سهله الرسوبي، بين منطقتين متشابهتين من حيث افتقارهما للموارد الطبيعية نسبيا على الرغم من اختلافهما البيّن في المناخ و التضاريس، الأولى هي المنطقة الجبلية في أطراف العراق الشمالية والشمالية الشرقية، والثانية البوادي الصحراوية في الأطراف الغربية والجنوبية الغربية، وبين هاتين المنطقتين يمتد السهل الرسوبي إقليما مفتوحا لا يفصله عنهما أي حاجز طبيعي، باستثناء نهر دجلة.

نتيجة لهذه الطبيعة الجغرافية، تتابعت هجرة الاقوام الجزرية القادمة من الغرب والشمال الغربي والاقوام الهندية–الاوربية القادمة من الشرق والشمال الشرقي على مر العصور، وكانت الهجرات الجزرية على نطاق واسع الى درجة انها كوّنت في نهاية الأمر الجزء الاعظم من سكان العراق في حين تغلغلت بعض الاقوام الهندية–الاوربية واستقرت بين السكان في اثناء الغزو الذي تعرض له العراق من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية، فكان لذلك أثر كبير في التركيب السكاني في العراق.

٢- نشوء أول أنظمة الحكم:

ان معدلات سقوط الامطار في القسم الشمالي للعراق بأكمله كافية لنمو الحبوب و البقول والبساتين على اختلافها مما دفع السكان الى الاعتماد على الزراعة الديمية خاصة وأن

الأراضي الزراعية المحيطة بشواطيء الانهار مرتفعة نسبيا عن مستوى المياه، ومن ثم يصعب سقيها سيحا بواسطة القنوات والجداول وكان من نتائج ذلك ان ظلت القرى الزراعية المنتشرة في القسم الشمالي من العراق صغيرة ومعتمدة كليا على مياه الأمطار ومكتفية ذاتيا، وما تصرفه من جهود لا يعدو حراثة وزراعة الأرض والانتظار حتى يحين موعد الحصاد، لذلك لم تكن حاجة السكان ماسة لأيجاد طرق ووسائل لإدارة شؤون المجتمع تشمل عددا كبيرا من القرى، بل اكتفت كل قرية او مدينة صغيرة بما لديها وعاشت بهدوء واطمئنان.

اما القسم الوسطي و الجنوبي من العراق، فان معدل سقوط الامطار كان ومازال غير كاف لأي نوع من انواع الزراعة لذا، كان لابد للانسان بعد ان استقر في هذا الجزء من العراق منذ الألف الخامس قبل الميلاد أن يعمل على ري الأراضي الزراعية بالطرق الاصطناعية، فيشق الترع والجداول ويقيم الاسداد لتوجيه مياه الأنهار إلى الأراضي، وكان لابد لهم للاحتماء من خطر الفيضانات من إنشاء مشاريع للري وتصريف المياه الفائضة وإقامة السدود ودرء أخطارها.

ولما كان السكان موزعين على المناطق المختلفة، وكان توزيعهم يحدد بالدرجة الرئيسة وجود مصادر المياه الكافية لري الأراضي، ونظرا لتعدد الأنهار وكثرة الاهوار والمستنقعات، فقد نمت أكثر من إدارة مركزية واحدة في المنطقة، كانت كل منها نواة لقيام دولة مدنية صغيرة تتمركز حول إحدى المدن الرئيسية، وهكذا كان لطبيعة ارض العراق وأنهارها ومناخها الأثر الكبير في نشوء أول أنظمة الحكم في القسم الجنوبي من العراق منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، بينما تأخر ظهور مثل هذه الأنظمة في القسم الشمالي من العراق عدة قرون.

٣- كثافة السكان:

اتصفت البيئة الطبيعية العراقية في العراق، ولاسيما في قسمه الجنوبي، بالقسوة و العنف. فضلا تباين مناخ المواسم المختلفة والتفاوت الشديد بين درجات الحرارة صيفا وشتاءا ونهارا وليلا، وتباين المناطق التي يتكون منها العراق، فقد اتسمت فيضانات أنهاره بالعنف و القوة وعدم الانتظام في المواعيد وعدم ملائمة مواعيد الفيضانات لمواسم الدورة الزراعية خلافا لما كانت عليه الحال في مصر المعتمدة على نهر النيل في حياتها.وكان من نتائج هذا العنف و القسوة في طبيعة وادي الرافدين، أن اتصفت الحضارة التي قامت في السهل الرسوبي

بالعنف والتشاؤم والتوتر والتأزم وتوقع المفاجآت وطغت عليها الناحية العملية في الحياة، وقد انعكس ذلك على نفسية الفرد العراقي.

٤- المعتقدات الدينية:

أثرت طبيعة أرض الرافدين وقسوتها وصعوبة السيطرة عليها في معتقدات القوم الدينية وتصوراتهم واتجاهاتهم الفكرية، فجاءت القصص والأساطير الدينية مليئة بالصراع والاحتراب من أجل البقاء، كما شغلت العراقيين القدماء الحياة وقسوتها فلم يفكروا الا بها وبما تتطلبه من صراع وكفاح فلم يبلوروا فكرة واضحة عن الحياة الثانية بعد الموت، بل ظنوا ان العقاب والثواب سيكونان في هذه الدنيا فقط خلافا لما كانت عليه الحال عند المصرين القدماء الذين اهتموا بحياة ما بعد الموت.

٥- الحياة الاقتصادية:

كان لافتقار العراق للمواد الأولية الضرورية لقيام ونمو الحضارة كالمعادن و الأخشاب والأحجار، نشوء حركة لاستيراد المواد الخام من البلدان والاقاليم المجاورة، فنشطت التجارة الخارجية ونظمت القوافل ووضعت القواعد الرصينة لمثل هذه التجارة، ونتيجة لذلك سعى الحكام و الملوك للسيطرة على طرق المواصلات المؤدية الى مصادر هذه المواد، فقامت الحروب والمنازعات بين الدول و الممالك الصغيرة المتجاورة، وكان ذلك من اسباب توحيد الدولة الصغيرة في دولة واحدة مالبثت ان غدت امبراطورية واسعة تسيطر على جميع الطرق التجارية التي تصل بين البحر الابيض المتوسط و الخليج العربي.

وقد اثبتت التنقيبات الاثرية وجود أكثر من عشرة مراكز تجارية آشورية من العصر الاشوري القديم(بحدود ٢٠٠٠-١٨٠٠ ق.م) في اقليم كبدوكيا جنوب شرقي الاناضول، كما كانت علاقات بلاد سومر وأكد ببلدان الخيج وما وراء الخليج قوية جدا، مثل علاقاتهم مع دلمون(البحرين) ومگان(عُمان) وميلوخا (وادي السند او الحبشة).

اما داخل العراق. فقد كانت خصوبة التربة ووفرة المياه وملاءمة المناخ حوافز وعوامل وجهت السكان بصورة عامة الى الزراعة وانتاج الحبوب وزراعة البستاتين، ولموقع العراق المهم، اهتم سكان بابل بالتجارة، وصدرت فيها القوانين والمراسيم الملكية لضبطها. واطلق

بعض الباحثين المحدثين اسم"مجتمع التجار" على المجتمع العراقي في العصر البابلي القديم(٢٠٠٠-١٦٠٠ ق.م).

٦- طرق النقل والمواصلات:

وفرت انهار العراق الرئيسة دجلة والفرات، والفرعية طرقا مائية جيدة قليلة الكلفة لنقل السلع والبضائع التجارية والمسافرين كما استخدمت لأغراض الصيد والحرب، وزادت اهمية المواصلات النهرية لان معظم مدن العراق القديم كانت تقع على شواطيء الأنهار أو قريبة منها، ولقد طور العراقيين القدماء منذ مدد مبكرة وسائط النقل فصنعوا القارب الشراعي منذ الالف الرابع قبل الميلاد، كما صنعوا قوارب مختلفة الاشكال و الأحجام لنقل البضائع والافراد واستخدموا السفن الشراعية والأكلاك والعوامات والقفف والقرب المنفوخة.

ولم يقتصر استخدام وسائل النقل النهرية على داخل القطر، بل ان السفن والقوارب استخدمت للاتصال بالبلدان والاقاليم المجاورة ولاسيما الخليج العربي وبلاد الشام، وقد تفاخر سرجون الأكدي بأن اول سفن دلمون ومگان وميلوخا كانت ترسو في ميناء أكد.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١- عصور قبل التاريخ / د. تقي الدباغ و د. وليد الجادر / مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٣.

٢- تاريخ حضارة وادي الرافدين ج١ / د. احمد سوسة / ط بغداد دار الحرية ١٩٨٦ .

٣- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج١/ طه باقر / دار الوراق ٢٠٠٩ .

٤- الشرق الأدنى القديم مصر والعراق / د. عبد العزيز صالح / ط القاهرة ٢٠٠٩.

٥- من ألواح سومر / صموئيل نوح كريمر / ط ومؤسسة فرانلكين للطباعة والنشر.

٦- سلالات وبيئات الإنسان / د. فاروق كامل عز الدين / طبعة جامعة الزقازيق مصر.

٧- العراق في التاريخ القديم، عامر سليمان، القسم الاول.

٨- هاري ساكز، عظمة بابل.